وكأننا بتوفيق الحكيم يقب في الواقع عن هذه المرأة الخيالية التي تهب الفنان حياتها، فلما ييأس من وجودها يصب لعته على المرأة من حيث كونها امرأة.

* * *

ومهما يكن من الأمر، فإن الحكيم الفنان لم يستطع أن يشتد ميله إلى المرأة الواقعية التي تتمسك بالشروط البشرية، وظل يعاني من صراع مزمن عنيف بين نزوعه إلى الحياة مع هذه المرأة المصنوعة من لحم ودم، وبين إرادته في أن يستغني عنها، ويقنع بالحياة مع شبح تلك المرأة المثالية التي تهبه حياتها بوصفه فناناً وليس بوصفه إنساناً أو بتعبير آخر: إنه ظل يعاني من الصراع بين الحياة والفن.

وتردد هذا الصراع في عدد من مؤلفات الحكيم، وخاصة في «بجماليون» و«يا طالع الشجرة» و«العش الهادىء».

ولنقف قليلاً عند «بجماليون» و«يا طالع الشجرة» بوصفهما المسرحيتين اللتين تصوران لنا هذا الصراع أكثر من غيرهما.

بجماليون: هناك أسطورة يونانية تقول بأنه كان بجزيرة «كريت» مثّال بارع أراد أن يقصر حياته على الفن وحده، ويعزف عن الزواج والحب، ولكن الالهة «فينوس» ـ إلهة الحب ـ تغضب من تصرفه هذا ومن كبريائه، فتملأ قلبه بحب تمثال امرأة من صنع يديه، اسمه «جالاتيا».

وملك حب هذا التمثال على الفنان كل كيانه، واضطربت في قلبه رغبات الحياة، فأخذ يتوسل إلى الآلهة أن تنفث الروح في «جالاتيا» فاستجابت الآلهة لتوسله ونفخت الروح في «جالاتيا» فأصبحت حية، وتزوجها الفنان، وأنجب منها ابناً شيد مدينة «بافوس» بجزيرة «كريت»[31].

أخذ الحكيم هذه الأسطورة اليونانية مضيفاً إليها بعض الأبطال من الأساطير اليونانية الأخرى، وأخرج لنا رائعته «بجماليون» التي يصور فيها الصراع العاتي بين الفنان والحياة.